

الصحراء المغربية: هدوء تام

< تحقيق وتصوير أرمين غيمر

ليست كل الصحاري متشابهة. غالباً ما يصاب السياح بخيبة أمل عندما يجدون أن الصحراء (المغربية) متكونة بصورة أساسية من الأحجار أو الحصى والحجارة التي هي أدق من ذلك وما ينجم عن تكسرها. ولكن في أقصى جنوب المغرب ثمة كثيب ذهبي أصفر رائع تتشكل منه بحار لا تنتهي من الرمال. هذه هي الصحاري المعروفة من خلال طابع الغموض فيها وتصويرها في الأفلام. ولكن مرة أخرى، مشاهدتها على أرض الواقع مسألة مختلفة تماماً، وتتجاوز حدود الزمان والمكان. الكثبان الرملية تمنحك الشعور بالإمتداد الشاسع الذي تختنق فيه كل ضوضاء. بل إن صوت المرء نفسه يحسه وكأنه يأتي مفاجئاً ومباغتاً. هنا لا يوجد شيء ما عدا الصمت التام.

زاكورة
كانت محطة للقوافل الأسطورية في طريقها إلى الشمال. وهي نقطة انطلاق جيدة للسياح العازمين على المضي جنوباً إلى الصحراء. وبعد عبور أخصب جزء من المغرب،

العابرة للصحراء. وهذا صحيح لأن أقدم ما هو موروث عن البربر يؤكد أن مدة السفر إبتداءً من زاكورة إلى مدينة تمبكتو الأسطورية، مشياً على الأقدام، هي 52 يوماً.

ت ميبكتو 52 يوماً" هذا ما تقوله علامة على الطريق في ضواحي زاكورة وقد أعادت إلي ذكريات الطفولة عن مغامرات خيالية غامضة. وهذه العلامة الموجودة في كل كتب أدلة السفر تذكر المرء بزمن القوافل



Tente berbère traditionnelle

خيمة بربرية تقليدية



Dunes infinies vers l'Algérie



بعد محاميد توجد كثبان رملية لا تنتهي
Dunes infinies après Mhamid

يصل المرء إلى هذه المدينة الرائعة التي تعتبر سوقا. وتقع زاكورة في نهاية الطرق إلى واحة وادي درعة التي تشبه ما يروى في القصص الخيالية، ومحاطة بالنخيل. ويصعب في زاكورة التصديق بأننا نقف فعلا على حافة أكبر صحراء في العالم. ستجدون أن المشهد الطبيعي يتغير بصورة تدريجية جدا. بحيث لا يشعر أحد بذلك. وأكوام الرمال التي شكلتها الرياح يبدو أنها شكّلت عشوائيا تلالا صغيرة جدا بحجم ما يكونه حيوان الخلد. وعلى أية حال، فكلما توغل المرء جنوبا كلما كثرت التلال، وهي تبدو متباعدة بشكل هندسي مثل جيش مهاجم وقد بدأ بفرض سيطرته التامة على المشهد الطبيعي برمته. في مدينة تامكروت التي تبعد نحو 20 كم إلى الجنوب الشرقي من زاكورة. أصبح جزءا من الحياة اليومية أن يناضل المرء ضد الكثبان التي ترتفع مدى قامه رجل.

بيوت البربر التقليدية

لقد تعلمت الكثير عن حياة النقش في لادي البربر لأنه كان من حسن حظي أن التقيت بعبد الله. وهو طالب من أغادير وكان عائدا في الطريق إلى أسرته. إنهم يعيشون في قرية تامكروت القريبة. وكان زميلي في السفر يريد تمضية العطلة

الخارج: فكل الأبواب والنوافذ تفتح على جانب الفناء. وللسقف برج يمكن للمرء أن يراقب منه المناطق المحيطة ويوفر منظرا جيدا إلى مسافة بعيدة. وبعد أن عشت الضيافة والحياة اليومية للأسرة البربرية لمدة يومين، بدأنا. عبد الله وصديقه فاضل وأنا. رحلتنا في الصحراء. فاضل على دراية كبيرة بالصحراء، رغم أنه في سن 16 سنة. وسبق وأن زار تمباكتو أكثر من عشر مرات مع والده. ◀

المدرسية في البيت ودعاني إلى البقاء في قصبه أسرته لبضعة أيام. القصبه هي المعنى الأصلي للكلمة العربية القلعة. ولكن البربر في جنوب المغرب يدعون منازلهم قصبه أيضا. وهي مبنية مثل القلاع ولا تخمي ساكنيها من الرمال فحسب ولكن أيضا من القبائل المجاورة. تقع غرف النوم وغرف الجلوس حول فناء مستطيل لا يوجد له إلا مدخل واحد ويمكن إغلاقه بباب ضخيم. ليس هناك انفتاح على

كثبان رملية لا تنتهي باتجاه الجزائر



Porte d'Agdez

بوابة أكديز



Maison berbère traditionnelle

بيت بربري تقليدي

محاميد

تقع مدينة محاميد الغزلان نحو 100 كم إلى الجنوب. وبعد المشهد المثير الذي رأيناه عند عبورنا ممرات تيزي بني الجبلية التي تقع نحو 45 كم من الحدود مع الجزائر، وهي آخر مدينة قبل الوصول إلى الصحراء، فقد كانت محاميد هي غايتنا. ومن الممكن المضي على طرق ليست مخصصة للسيارات، أو السير على الأقدام أو على الجمال. ونظرا لتقدم الصحراء عليها فإن المدينة تواجه تهديدا خطيرا. تقع محاميد على وادي درعة. وهذا الوادي الذي نادرا ما يحوي المياه، يقسم المنطقة السكنية الواسعة إلى قسمين. والمدينة التي كانت مركزا للبدو ولرور القوافل، هي اليوم نقطة الإنطلاق لرحلات سفاري الإبل في الصحراء. وبالنسبة للذين لم يحجزوا من قبل في رحلات السفاري، لا تزال أمامهم فرصة للمشاركة في اكتشاف الصحراء من هنا. ◀



Palmeraie au coucher du soleil

نخيل عند المغيب



Sur la terrasse de la maison berbère

على سطح البيت البربري التقليدي



Abdallah préparant un tajine

عبدالله يهيئ الطاجين

المكان المتفرد لم يرد ذكره في أي دليل سفر. وبعد أن نصب أصدقائي مائدة من الأكل الذي حملناه معنا بالأكياس. تسلقنا الحافة الرملية التي كان إرتفاعها بضع مئات من الأمتار. كثبان تنفو في لغة البربر هي الرمال الذهبية. وهي كثبان تنمو بسرعة مع الريح في وسط منظر صخري طبيعي خلاب. أمضينا هناك فترة ما بعد الظهر. وبينما انشغل أصدقائي بنصب الخيمة. إغتنمت الفرصة لمراقبة الغروب والإحساس بالهدوء في هذا المكان. وحتى أجمل الصور ليست قادرة على نقل هذه التجربة من السلام والهدوء. ولا يستطيع المرء تقدير روعتها إلا على أرضها. ■

رجعنا بالسيارة إلى منزل عبد الله واتجهت غربا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ليس بالسيارة ولا الجمل مثل أغلب السياح. ولكن سيرا على الأقدام. ووضعتنا لوازمنا والخيمة على ظهر حمار. ولكون كثبان تنفو هي في وسط صحراء حجرية. فإن الوصول إليها سهل جدا وتعتبر سفرة جيدة. بالكاد نجد أيا من السياح هنا. وفي الطريق. تسلقنا جبلا منفردا. ومن قمته تمتعنا بمنظر لا ينتهي للصحراء المحيطة. والمكافأة غير العادية التي حصلنا عليها هي أننا اكتشفنا من ركام الجدران التبقية أنه يمكننا الحكم بأنه في وقت ما في الماضي كانت توجد مدينة هنا. هذا

وبعد مغادرة محاميد. فإن الكثبان تبدو أولا صغيرة ومغطاة بالنباتات. ولكن هذا يتغير بسرعة. رحلة قصيرة من مجرد 10 كم على الطرق الوعرة بالسيارة أو الجمل تأخذك إلى إرج ليهودي حيث ستحاط بكثبان رملية إرتفاعها نحو 100م. وللأشخاص حسني الحظ الذين لديهم الوقت لقضاء بضعة أيام هنا. فإن رحلة الى كثيب إرج شيفاغا سيكون مبعثا للغبطة.

كثبان تنفو

كثبان تنفو جديدة بالاهتمام كمقصد سياحي. وبعد أن أمضينا ليلتنا في محاميد.